الخبز والكآبة

بقلم محي الدين صبحي

مثل قطار متآكل الخشب (*).. يحمل صفيره الابح كل رغباتنا ونزوات الشباب في عروقنا .. تنحدر اقاصيص زكريا تامر الى اعماق واقعنا النفسي بكل جوعه الى الطمأنينة المادية والروحية . انه تعبير عن تعبنا وفرارنا الى الحلم اليقظان والحلم المخدر تحت سياط الحاجة اللاهبة الى الخبز والى الحب .. وقد ولد قصاصنا وفي فمه هذا السؤال : « هل يمكن أن نعيش بلا حب ولا خبز؟»

ذلك ما يجيبنا عليه زكريا في احدى بواكيره « المسرات الصغيرة » :

« اني احب الجلوس في هذا المقهى المنزوي ذي المشروب الرخيص .. فهنا يحلو لي ان اغمض عيني نصف اغماضة ثم انصت الى الصخب المتصاعد من حولي .. رنين الفرد المتدحرج على سطح الخشب الصاد ، صيحات اغنية منسابة من المذياع ، ضحكات ، كلمات تصل الى مسمعي متبعثرة :

ـ اسكت متى اصبحت تفهم في السياسة .

ـ ليتنا نستطيع ان نحيا بدون خبز .

ـ كل النساء مومسات . »

ففي هذا الحوار الذي يصدر عن اشخاص مجهولين تتناثر مشاكل شبابنا : فليس من شيء أكيد في عالم السياسة ، وخبزنا اليومي مهدد بالانقطاع .. أما المرأة فهي علة العلل في حياتنا الصخرية .. نعرفها شبحا في السينما ومومسا في غرفة معتمة .

والحب ؟ انه كآبة العمر !

ان الخبز يرمي البطل في ذل واستسلام :

« ليس هناك ما أشكو منه . اني مستسلم الى طمأنينة تكاد ان تكون بلادة .. فانا احشو معدتي في النهار ثلاث مرات من خبز ابي ... واعتصر من امي النقود التي احتاجها لشراء سجائر . » وفي قصة « الليل في المدينة » يقول : « انني افكر احيانا بنشر اعلان في الصحف بهذا الشكل :

« شاب للبيع ، عمره خمسة وعشرون عاما ، قوي الجسم ، يقوم باي عمل ، والثمن تأمين طعام يومي له ». لكنه لا يستطيع فالاعلان يكلف مالا !

او يتجسد بؤس اسرته في نفسه فيناجي قطته : « كلي يا قطتي .. ان امي تصرخ في وجهك دوما : لا تجوعي معنا يا بلهاء . »

وتترابط في حياته ازمة الشهوة والخبز ، على نحو ما تطرحها قصة « التثاؤب » حيث يدفع لاحدى المومسات اجره الاسبوعي بدافع من الشفقة والشهوة ، فلا يبقى معه ما يدفعه لاهله . وتلك هي المسألة في مجتمعنا . اذا انحلت ازمة العمل برزت ازمة الجنس ، والانسان في بلدنا خاضع على الدوام لهذين الحافزين الفطريين ، وهو لا يفصل الحب عن الجنس ، كما انه لا يستطيع الا ان يحب، فاذا فقد الحبيب المشتهى فليعشق تمثالا من الجص :

« محبوبتي تمثال مصنوع من الشمع او من الجص ، انها فتاة رائعة تقف باستحياء في واجهة محل لبيع الملابس النسائية ، وكم يأسرني في هذا التعبير الغامض الذي يظلل وجهها الشاحب ، والذي هو مزيج من الوداعة والكآبة العميقة » ثم يناجي التمثال :

« ـ انا حزين يا سوزي .

« ـ لا شيء في الحياة يستحق ان تحزن من اجله .

« ـ انا احبك يا سوزي .

« ـ الحب حماقة كبرى ! »

ايه سخريه ولهفه ، في أن يحب الانسان تمثالا من الجص ؟ .. ولو تعمقنا السطور ألا نراه يصف اكثر النساء في بلدنا ؟ ألسن تماثيل من الجص ، في وجوههن تعبير غامض هو مزيج من الوداعه والكآبه ؟ ولو انه التقى بالاحياء ، فهل تكون حاله احسن ؟ ذلك ما يعرضه علينا في قصة « الصيف » حيث تستسلم له فتاته في غرفته .. وحين تصحو من غفلتها ، تطالبه بالزواج وتذهب ، حين يبقى وحيدا يتمطى في ذهنه سؤال

عطاف : « متى نتزوج ؟

« انا اشعر بالنفور من هذا السؤال ، فقد استسلمت لي ، وها هي تطالب بالثمن : الزواج .

« ان كل ما في مدينتي له ثمن معين .. لا احد يعطي شيئا دون مقابل . »

وهو بعد ان اعطى المومس كل ما في جيبه ، قال لنفسه : « ما اتعس حياتي .. لقد سئمت منها .. وفي يوم ما ساذبح قلبي المعتوه الذي يعشق هذه المدينة البخيلة» فقصته مع المدينة قصة قديمة . وهو يحملها مسئوولية جوعه وكآبته .. وقد هرب منها بعد ان ترك المومس تلك وهو خالي الجيوب .. هرب من المدينة ، الى « مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر ... لا تاريخ لها ، وايامها تمر بلا اسماء . » حيث يجد السعادة في الكسل وفي حب امرأة . ومنذ هذه القصة يبدأ العالم الخارجي بالشحوب، وتنمو اعماق البطل وتتخضم ، عارضة علينا كل انطباعاتها تجاه الحوادث . ان الامور تخضع للضغط الذاتي فتبدو من خلال نفسية البطل متلاحمة مغفلة بالرمز . وهو بذلك من اوائل القصاصين العرب الذين يقدمون لنا الوجود ضمن اطار نفسي ، لا مفتعلا في ذلك لغة معقدة ولا هاربا الى مجردات تقحمها ثقافته الى النص ، مثل الذي نراه في

(*) تأخر نشر هذا المقال ، وقد وصلنا قبل مقال الكاتب الذي يودع به الادب ، والذي نشر في العدد الماضي . ونأمل ان يعود الكاتب عن موقفه السلبي وان يواصل انتاجه ، فبهذا وحده يزيل كثيرا من عقبات الحياة ـ « الاداب »

سطور مطاع صفدي .

وقد بدأ زكريا اتجاهه هذا بقصة من احسن القصص التي ظهرت منذ ثلاث سنوات ، ان قصة « الرجل الزنجي» رمز الى الشخص الاخر الذي يكمن في نفس كل منـاه الشخص الاخر الذي لا يخضع للقيود الاجتماعية ، الى عرض الحياة الداخلية بلا طلاء في ستة مشاهد تمثـل مختلف انواع الحياة اليومية ، في الشارع وفي المقهى، ومع امرأة ، وفي المعمل حيث يطرد ويعود الى الشارع منسكعا يرافقه احساس طازج بفورة الحياة في دمه :

« .. وتسري في الهواء نبرة جافة ، فيلتصق وجهي بالتراب الخشن الذي له رائحة جسد انثوي .. ويهتف الرجل الزنجي ..

ـ الارض .. كم احبها .

واتمنى في تلك اللحظة لو تهطل امطار عجيبة تفقدني صلابتي فاتحـول الى سائل تتجرعه الارض بشوق .. »

بتلك الامنة تنتهي قصة رجل اخلص لنفسه، فعاش في مأساة دائمة : ضحك منه عاشقان ، خنقته المقاهي ، اغوى حبيبته بعد ان خطبها غيره ، طرد من عمله وعاش وحيـدا يغني انشودة الكآبة . وفي القصة التي تلتها ، ياتي الى المقهى ذات البطل المتعطل ، وقد انفصل عن العالم وانكره الناس حتى استحال اي تفاهم بينه وبينهم :

« قلت : انا ولدت في سنة ١٩٣١ .. امي لم تمت بعد .. العالم كله كئيب ـ قال : آه ما اجمل كلمة فخذ .

ـ قلت : ليتني كنت غرابا . »

ذلك انموذج من حوار يدور بين البطل وصديقه . كل مشغول بنفسه عن صاحبه ، وليس في الحديث فسحـة لكلمة عزاء يتبادلها صديقان . وهو حين يترك المقهى ويعود الى « القبو » الذي يسكن فيه يسال امه :

« ـ هل سأل عني احد ؟

« فأجابت ببرود : لم يسأل عنك احد .

« فامتلكتني خيبة مريرة .. واحسست باني من اشد المخلوقـات بؤسا . ولم أستطع البكاء لان عيني امي كانتا تراقبانني بفضول ، فقصدت المرحاض . وهناك اسندت خدي الى جداره الخشن الوسخ وانتحبت طويلا دون خجل . »

انه ادرك الان كم اصبح معزولا عن الاحياء .. ومع ذلـك فلم يستأنس بامه بل صنفها في عالم الاخرين الذين نسوه، واصبح قلقها ولهفتها رقابة يفر منها . اما المرحاض فهـو رمز لما تردت اليه حياته من العزلة النتنة والبطالة واليأس. وهو قد اسند راسه الى الجدار لانه لم يجد صـدرا يستكين له .. لقد بكى مصيره الخالي من اي عزاء . ان وحدته تثقل عليه . لقد صلبه العالم وها هو وحده لا يجـد مأوى يخلو به الى نفسه . وهو يعيش بلا امل: « اني اعيش في هذا القبو .. العالم يجثم فوقي .. اني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة » ثم يتقيأ ويغشى عليه .. فيحلم بامرأة تثيره برقصها ، لكن الناس يفسدون عليه حتـى الحلم، اذ يشنقونه بتهمة انه قتل اباه .. وتلك نقمة اوديبية.

في القصص الماضية كان الحلم يحمل كل التفاؤل والعالم الجميل الذي يتمناه كل شاب، وفي القصة الماضية « القبو» بدا اليأس يتسلل الى الحلم . في الحلم كان يشعر بالحـب واللذة والكرامة . لقد فقد الحلم متعته .. فأية منجاة له في الارض ؟ واذن فلينتحر . وهو منذ قصته الاولى « المسرات الصغيرة » يقدم بطله مفكرا بالانتحار ، وكلما ازداد عزمه نما احساسه بنفسه حتى ليكاد ان يصيح في الناس ، تاكيدا لاهمية : « اني سأموت .. هل تعرفون معنى هذا ؟» لكن حقده على العالم ليس اعمى : « اجلت النهاية حتـى مقدم الربيع .. اني احب الشتاء واريد ان اتمتع بمباهجه، ثم بعد ذلك لتأت النهاية الباكية . » اما في قصة « صهيل الجواد الابيض » فانه لا يؤجل المشروع لانه استعرض ماضيه وحاضره وايقن انه بلا مستقبل :

ماضيه « كان لك فتاة ، مدينة افراح ولذة ، سلبت منك ».

حاضره « ها انت الان سكير .. شارع مقفر .. طين متراكم .. وحيد ككلب الاسواق الاجرب .. »

مستقبله « ستنهض في الصباح لحظة معينة .. ستتمطى وتتثاءب بتكاسل . ستغسل وجهك وتمشط شعرك وترتدي ثيابك .. ستبصق، تهرم مهترىء ، وانت تسير في شارع مغمور بشمس النهار الجديد .. ثم سيدفنك المعمل في احشائه الشرسة »

واكد عزمه على الانتحار ادراكه لعبثية المطالب : « لماذا لا اموت ... ماذا سأفعل لو كنت املك مدنا من ذهب .. لو احببتني اجمل امرأة ... ماذا سافعل ؟ اظنني ساحدق في لمعة حذائي الجديد واقول بضجر :

ـ اوه كل الاشياء تافهة وغبية .»

وبذلك رفض ما لن يحصل عليه قط . رفض حتـى الافتراض ... وفي القصص السابقة كان العالم يلفظه لكن الحياة تحتضنه .. كانت رائحة التراب المندى ، وخيال حبيبة ، او حديث من صديق تعيد اليه الحياة . أما الان فقد رفض الحياة ـ ما عرفه منها ومالم يعرفه ـ ثم غادرها على صهوة جواد ابيض . ويمكن ان نعد هذه القصـة وسابقتها نقطتي تحول في اسلوب القصاص وطريقة عرضه. كان عالم الحلم عنده منفصلا بعض الشيء عن عالم اليقظة، وكنا نحس بانتقال البطل بين العالمين . اما في القصـص التالية فاننا نعيش في عالم من الرموز بين الحقيقة والخيال، مما يذكرنا باسلوب توفيق الحكيم في مسرحية «شهرزاد» ان القصة الماضية مترابطة ومسلسلة وذات بطل واحـد وجو واحد ومشاكل متشابهة ومواقف تتطور بتدرج بطيء في مجابهة مطاليب الجنس والخبز والحب ، حتى ليمكننا القول انها فصول من رواية واحدة وان كان لكل فصـل فنيته واستقلاله ، ومما يؤكد راينا ان البطل الذي ينتحر في القصة الماضية يبعث من جديد في القصة التي بعدها، ويبعث من القبر :

« ولقد اطعمت لحمي وذكرياتي واحلامي الهرمة لغربان سوداء حومـت فوقي في نهار شمسه باردة هزيلة ، وساعاته كلها مدفونة تحت الرماد المنهمر من جرح رجل بائس مصلوب وسط صخب مدينة كبيرة . وتعاقبت علي الاعوام الكثيرة وانا راقد على ظهري بدون فرح او كآبة .. احملق ببلاهة في عتمة موحشة .. وتسرب الي في احدى الليالي ضياء القمر من ثغرة في سقف قبري . »

ترى اليس هناك صلة بين الانتحار والبعث من القبـر

في قصتين متتاليتين ؟ واذا كان هناك صلة ما فهل يكون الانتحار كابوسا من مشاغل الحياة يغيب الوعي تحت وطأته ويعيش الانسان في حاله لا مبالاة ؟ قد يكون هذا التساؤل صحيحا اذا تابعنا بقية قصة « ابتسم يا وجهها المتعب » التي نقلنا مطلعها آنفا .

يعود البطل من قبره الى البيت فتنكره امه واخوته ، صائحين : « اذهب عنا يا مجنون » وفي الشارع يمر باحد المطاعم فينبثق جوعه محملقا في المآكل حتى يسأله احدهم:

« انت جائع ؟

« انا بلا نقود .

« اتبعني »

ولكن هذا المنقذ لا يخلصه من الجوع الا بعد ان يشترط عليه قتل امراة . وبعد الجريمة يذهب الى المطعم حيث يستطيب الاكل ، ويجري بينه وبين الجرسون هذا الحوار:

« ــ اللحم لذيذ جدا .

« ــ هذا مطعم للاغنياء .. وهو لا يقدم الا افخر الاطعمة ... اللحم الذي اكلته لحم انسان بدين

« فتساءلت بصوت خفيض اجوف :

« ــ لحم انسان ؟

« واندفعت خارج المطعم ، وفي زاوية من زوايا الشارع حاولت ان اتخلص من الغثيان بان اتقيأ فلم انجح .. وسرت بخطى مهتاجة وانا اردد: لحم انسان .. لحم انسان .. »

ومن الواضح انه ليس بامكاننا فهم هذه القصة الا اذا اعتبرناها رمزية وان انبعاثه رمز لخلاصه من كابوس التبلد ، وان الانسان لا يمكن ان ينقذ نفسه في مدينة ليس في قوانينها ضمانات ... لا ينقذ نفسه الا بقتل الاخرين .. اي بمزاحمتهم على خبزهم .. وانه اذا آذى احدا في سبيل عيشه فإن ضميره سوف يظل يؤنبه وينغص عليه حياته .. ويؤكد ذلك ان النادل يقول للبطل : هذا المطعم للاغنياء . ومن المعلوم ان الاغنياء يأكلون من لحوم الناس ولو بشكل غير مباشر . وهو يختم القصة بسيل من الرموز توحي بان المدينة في نظره « مومس عجوز ذات وجه شاحب لا يعرف الابتسام » وبان القمر الذي ابصر شعاعه من خلال القبر ، كان املا ومضى في ذهنه لحظة ثم انطفأ .. « القصة منشورة في عدد فبراير في مجلة الاداب » .. لمن شاء ان يعيد النظر في رموز القصة .

★

« قرنفلة للاسفلت المتعب » .. اخر قصة كتبها زكريا تامر . وهي تدور حول موضوعاته الثلاثة التي يفضلها : « الموت ، الحب ، الخبز » ، وهي اقانيم تلبس لبوسا رمزيا ، بل اسطوري .. تبدأ القصة بتصوير فتاة مراهقة .. ان جوعها لا يرتوي الا بان يختطفها سبعة رجال ويرضي غرورها الانثوي ان يركع كل واحد منهم مبتهلا الى جمال قطعة من جسدها ... اما الحب فينزوي ذليلا في اخر القصة اذا ان الحبيبة قد هجرت وتحولت الى مومس صغيرة . وما بين الحب والتشهي تتصارع الحياة والموت في مشاهد سريعة متلاحقة منفتحة على الحياة .. كانها الحياة . والقصة ــ بل ان انتاج زكريا تامر كله ــ يصور واقع حياتنا الفردية والاجتماعية بكل ما فيها من جوع وبؤس وحرمان وكبت وعاطفة ذبيحة وقلق فكري وشعوري . ان شبابنا محكومون بالف قيد وقيد . وان الفقر والتقاليد وقسوة الحياة تحيل الشاب الى انسان ميت الاحساس ووحش مفترس في ان واحد ، بينما تتحول الفتاة الى مومس تترك من تحب وتبيع جسدها لمن يدفع الثمن مهرا عاليا .

ان زكريا هو الفنان الوحيد الذي ينقد واقعنا بقسوة دون ان يتحول نقده الى خطابات وتقارير ... واقول « الفنان الوحيد » في القصة القصيرة بعد ان ظهرت تباشير تحول العجيلي الى كتابة الرواية .. وليس ذنب زكريا ان قصته ، كما تقول نازك الملائكة : « قصة لا شيء فيها غير الرعب والعذاب والشر والجريمة . ما من نبضة طيبة تخفق، ما من ابتسامة ، ما من خفقة حب، فمن اين جاءنا زكريا تامر بكل هذا ؟ واين مثل هذا في حياتنا العربية ؟»

وانني لاسأل الشاعرة . وما حاجتنا الى الثورة والوحدة لو لم تكن كل هذه الامور موجودة فعلا في واقعنا العربي؟ ان فضح هذا الواقع واجب اخلاقي على كل فنان عربي .. اليس كذلك يا من نظمت « غسلا للعار » ؟

ولعل الشاعرة ارادت ان تفرض موقفا حين كتبت : « والرجل الذي تتحول حبيبته الى مومس لا يمكن ان يبكيها في مقهى ، وانما يغلب ان يقتلها قتلة شنيعة » ان الرجل الذي يقتل هو الرجل المتوحش وليس الرجل الذي يملك ضميرا ولا وعيا . ان وعي البطل لا يدفعه الى الجريمة لانه يعرف الاسباب الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية التي حولت حبيبته الى مومس . والمومس هنا كل فتاة تترك من تحب وتتزوج من تكره في سبيل المال .. وهذا ما يجعل زكريا مبشرا باخلاق جديدة في جيل جديد .. اما ان العامل يخاطب الرغيف قائلا له : « يا عاري الكبير » فلان كل فرد في المجتمع ــ وليس العامل وحده ــ يشعر بثقل الاوضاع الاقتصادية وقسوتها ... وليس القاص مسؤولا عن ايضاح اثر الاستعمار في ذلك .

ان الجيل الجديد شديد الوعي لحاجاته الاساسية :الخبز والحب ، وهو يشعر بصعوبة تحصيل الخبز فيحارب على جبهتين : في الخارج ضد الاعداء وفي الداخل عن طريق البؤس ، في سبيل ايجاد ضمانات اجتماعية .. وكل دعوة نقدية الى اسكات الاصوات الفاضحة هي دعوة مكارثية الى كم الافواه .. اما عن الحب فان الجيل يعلم تمام العلم ان التقاليد والتحريم الديني هما اساس هذا الخنق العاطفي ، لذلك يثور ضدهما يصيح « فليسقط ابي ــ لانه رمز التقاليد ــ ولتعش امراة جارنا ــ لان عندها ما نحتاج ــ » . ومثل هذه الصيحة لا تصدر الا عن شبان عاشوا في مجتمع عربي رجعي حرمهم من حقوقهم الطبيعية .. وان علينا ان نناضل في سبيل الحرية الاجتماعية ، بمثل الضراوة التي ناضلنا بها في سبيل الحرية السياسية .

درعا **محي الدين صبحي**